

بدر شاكر السياب : شاعر المآسي والأحزان

عبد اللطيف الفيضي

باحث، قسم العربية، جامعة كالكوت، كيرلا ، الهند

ولم تهدأ أرض العراق عن الحروب والمشاجرات منذ عهد الإسلام حتى في عصرنا هذا حيث لعب في أرضها جميع القوى الاستعمارية القديمة والحديثة، وكانت المعارك الداخلية بين الفقراء والأغنياء أو بين العمال وملأك الأراضي أيضا قائمة في أرضها مما جعل أكثر شعراء العراق وكتابها ينتسبون إلى الاشتراكية. وقد لعبت الأحداث السياسية مكانة مهمة من حياة العراق، بحيث يمكن القول أنها تمثل الوجه البارز للنشاط الفكري والثقافي والاجتماعي في العراق، إن العراقيين يستجيبون إلى المعطيات السياسية استجابة ملحوظة، وهم يشاركون في الأحداث السياسية ويناقشون اتجاهاتها بوعي لا يخلو من تميز، ولهذا فإن اهتمامهم بأي نشاط ثقافي أو اجتماعي يتحدد غالباً بمقدار ارتباط هذا النشاط بالأفكار والأحداث السياسية. ويصدق هذا على الأدب عامة، وعلى الشعر بوجه خاص. بدر شاكر السياب الذي لم يعيش غير ٣٨ عاما وذلك بين ولادته عام ١٩٢٦م في جيكور قرب البصرة بالعراق، وبين وفاته عام ١٩٦٤م في المستشفى الاميري بالكويت، وكأنه يجسد مآسي وعذابات بلده العراق، والمظالم التي تعرض لها في ظل مختلف الأنظمة السياسية التي تعاقبت عليه، وحكمته بالحديد والنار. وخلال حرب الخليج الأخيرة التي اندلعت إثر الغزو العراقي للكويت وذلك في صيف ١٩٩٠م، حضرت في أذهان الكثيرين قصيدته الشهيرة " أنشودة المطر " ذلك أنها بدت لهم وكأنها وصف دقيق لتلك المأساة التي لا يزال الشعب العراقي يعاني منها إلى حد هذه الساعة. ففي تلك القصيدة، يقول بدر شاكر السياب: أصبح بالخليج : " يا خليج / يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى " / فيرجع الصدى / كأنه النشيج / "يا خليج / يا واهب المحار والردى " / أكاد أسمع العراق يذخر الرعود/ ويخزن البروق في السهول والجبال. وفي العراق جوع / وينثر الغلال فيه موسم الحصاد / لتشبع الغربان والجراد / وتطحن الشوان والحجر / رعى تدور في الحقول .. حولها بشر / مطر .. مطر ... مطر .. (١)

طفولة فاجعة

وكانت حياة بدر شاكر السياب مأساة في حد ذاتها، توفيت والدته - أثناء الوضع - ولم يبلغ من العمر ست سنوات، فعمست هذه الفاجعة على نفسه الكثير من الألم وأنبتت بداخله بذرة الحنين الدائم إلى أمه وقرينته جيكور، فراح يشعر بحزن غامض وبحنين عميق إليها، بل كان يستيقظ أحيانا في الليالي ويسأل عنها، ولكنهم يجيبونه أجوبة غامضة لا تقنع، وقد جسد هذه الصورة في قصيدته "أنشودة المطر" حيث قال: كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام / بأن أمه التي أفارق منذ عام / فلم يجدها، ثم حين لجّ في السؤال / قالوا له: " بعد غد تعود .. " / لا بد أن تعود / وإن تهامس الرفاق أنها هناك / في جانب التل تنام نومة اللحود .. (٢)

١ ديوان بدر شاكر السياب ص: ٢٦٤

٢ أنشودة المطر، نفس المرجع ص ٢٦٣

وعندما كبر، أخذ يقول لأقاربه وأصدقائه بأنه لن يعيش طويلا . وهذا ما تم بالفعل وذلك بسبب مرض السل الذي ظل ينخر جسده حتى اللحظة الأخيرة من حياته . وفي التاسعة من عمره تزوج والده بامرأة أخرى تسمى 'رزوقة' ، مع ما كان جده يعارض هذا الزواج بنفسيته الإقطاعية، فترك البيت مع زوجته الجديدة، وبقي بدر السياب مع أخويه في رعاية جده ، هكذا فقد السياب والدّه بعد أن فقد أمّه قبل ثلاث سنوات.(١)

الجسد الضاوي ومرض السل

الملاحم التكوينية الخاصة لجسد السياب والتي صارت مأساة أخرى في حياته كلها حيث رسمت في عيون الفتيات منظرا يحجمهنّ عن حبه وجعله شريك الحياة ، ويصور الناقد عباس إحسان عن ملامحه التكوينية الظاهرة هكذا: غلام ضاو نحيل كأنه قصبه، ركب رأسه المستدير كحبة الحنظل، على عنق دقيقة تميل إلى الطول، وعلى جانبي الرأس أذنان كبيرتان، وتحت الجبهة المستعرضة التي تنزل في تحدّب متدرج أنف كبير يصرفك عن تأمله أو تأمل العينين الصغيرتين العاديتين على جانبيه فم واسع، تبرز " الضبة " العليا منه ومن فوقها الشفة بروزا يجعل انطباق الشفتين فوق صفى الأسنان كأنه عمل اقتسامي، وتنتظر مرة أخرى إلى هذا الوجه " الحنطي " فتدرك أن هناك اضطرابا في التناسب بين الفك السفلي الذي يقف عند الذقن كأنه بقية علامة استفهام مبتورة، وبين الوجنتين النانتين وكأنهما بدايتان لعلامتي استفهام .آخرين قد انزلت من موضعيهما الطبيعيين(٢). يحاول الباحث محمد الحجيري لاكتشاف التناسب بين شعره وصورته الجسدية عندما يرى، وكان شعره انعكاسا لشخصيته وأمه ويأسه، فهو النحيل الهزيل في جسمه بينما شعره يتجلى كالمارد لدى القراء وعشاق الأدب، لكن بين سطور أبياته الشعرية نلمح شبح الألم والعذاب والنحيب واللوعة. والراجح ان هزالة جسم السياب انعكست على بعض مواقفه(٣).

قلب خافق وحبّ ضائع

اشتاق السياب المواساة والنيابة عما لاقاه من المآسي والأحزان في حياته من وفاة والدته في صغره وزواج والده مرة أخرى وهجره إياه، ووفاته جدته والذي كان شديد التعلق بها بعد الأم ، وذلك بحب الفتيات اللاتي تظاهرن الوداد له والميل إليه ، ولكن كانت تلك المحبة كلها تراجيديا شديدا عليه. واشتاق السياب أكثر من مرة أن ينعم بالحب ، فأحب ابنة عمه 'وفيقة' عندما يدرس في مدرسة البصرة الثانوية ، وتزوجت بغيره الامر الذي ترك ألما عميقا في نفسه، ولعلها كانت تجربته الأولى في الحب. ويذكر هذا الحب في قصيدته " شباك وفيقة " وفي " حدائق وفيقة ، وفيها يقول: وشباكك الأزرق / على ظلمة مطبق / تبدى كحلم يشدّ الحياة / إلى الموت كي لا أموت... شفاهك عندي ألدّ الشفاه / وبيتك عندي أحب البيوت / وماضيك من حاضري أجمل / هو المستحيل الذي يذهل(٤).

عشق السياب سبعا من النساء بينهن شاعرتان ، واحدة عراقية كانت تزامله في دار المعلمين العالية، جامعة بغداد، وكان يسبقها بمرحلتين، وأخرى أجنبية تعرف عليها في نهاية العمر تماما. لم يكن جميل الوجه، ولكنه كان مبدعا حقيقيا لذا على الرغم من حبه لعدد من النسوة الجميلات اللواتي مررن بحياته ، إلا أنه لم ينل منهن غير "إقبال" زوجته، وقد كتب كثيرا عن هذه العلاقة الانسانية وعن عشقه لهن ابتداء من حبه الأول لقريبته وفيقة ووصولاً إلى آخرهن الشاعرة البلجيكية.

- ١ د. ديزيره سقال: بدر شاكر السياب شاعر الحداثة والتغيير ص ١٢
- ٢ احسان عباس : بدر شاكر السياب - دراسة في حياته وشعره ص ٢٥
- ٣ محمد الحجيري :مجلة نزوى الفصلية الثقافية، العدد : ٦٧ / أغسطس ٢٠١١
- ٤ المرجع نفسه ص ٧٩

ويرى الباحثون أن "هناك دلالات كثيرة تشير إلى أن السياب وبرغم شعره الغزلي الغنائي الإيقاعي والندى والعابق بالصور والمعاني لكنه كان يعيش 'عقدة النساء' و'الحرمان الجنسي' و'الحب' تماما كما العديد من الشعراء والشاعرات في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، ويعرض السياب في شعره قضية قد أثارها وعمق مأساتها وكأنما أراد أن يجعلها قضية تسويقية ليستجلب عطف كل من حوله وشفقتهم" (١). من هنا يمكننا وصف السياب بأنه جسد محنط يشتعل برغبات حول نساء مستحيلات. ويرى الناقد إحسان عباس إن السياب "أنفق حياته القصيرة منذ أن أدرك الحلم إلى أن مات، وهو يبحث عن القلب الذي يخفق بحبه، دون أن يجده. كان في قرارة نفسه واعياً بأن الحب في كل مرة كان من جانب واحد" (٢).

المعاناة بالفاقة والتشريد السياسي

عمل السياب كمدرس ثانوي في إحدى القرى ، ثم سجن لفترة نظرا لتحركاته السياسية ضد النظام وكان قد انضم إلى الحزب الشيوعي كما انضم إليه بعض أصدقائه وأعوانه لما رأى فيه من تأييد للفقراء وانتقام لملك الأراضي والاقطاعيين. فبذلك تمّ منعه إدارياً من التدريس لمدة عشر سنوات، وأثناء ذلك عانى السياب من اليأس والوحدة والفقر لفترات طويلة، فظهر شعره حزينا يعكس حالته النفسية، وينتقل من عمل إلى عمل، فعمل كذواقة للتمر بالبصرة، كما عمل كاتب في شركة نفط بالبصرة، ومأمور مخزن لإحدى الشركات، كما عمل صحفياً ولم يترك الشعر للحظة حيث كان أدواته في التعبير ما يدور في نفسه. توترت الأوضاع في العراق في فترة الخمسينات، ونظراً لماضيه السياسي هرب السياب متخفياً إلى إيران ومنها إلى الكويت، والتي عمل فيها في إحدى الوظائف المكتبية بشركة كهرباء الكويت، ثم مالبت أن عاد مرة أخرى إلى بغداد وتم تعيينه موظفاً بمديرية الاستيراد والتصدير العامة.

وهذه المعاناة بالبطالة والتجوال من مكان إلى مكان طلباً للعمل وخوفاً من النظام المستبد كانت مصيره طوال حياته ، وقبض عليه عام ١٩٤٩ وسجن مدة ثلاثة أشهر بسبب نشاطه الحزبي. وبقي في السجن في هذه المدة يعاني معاناة نفسية قاسية من مشاهد التعذيب والتشويه والموت التي تعرض لها المسجونون السياسيون. وكانت هذه التجربة المريرة بداية انهياره النفسي والصحي. ولكن في آخر أيامه انفصل السياب عن الحزب الشيوعي وعاداه معاداة كبيرة، تعيد ريتا عوض هذا التحول إلى انهيار حالته النفسية حيث تقول " إن السياب في السنوات الأخيرة من حياته القصيرة تبني مواقف سياسية متقلبة ومشوشة أحياناً، فإن ذلك كان عائداً إلى أوضاعه النفسية المنهارة وإلى آلامه الجسدية وإلى فقره المدقع وحاجته إلى المساعدة المالية التماساً للعلاج. لكن موقفه السياسي العام، كان التزاماً بالقومية العربية وبوطنيته العراقية التي تعدّ العراق جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير." (٣).

سطور صقلتها التجارب

ظل السياب طوال حياته معذباً شريداً، أحسّ بالشقاء وعدم الاستقرار على الصعيدين الشخصي والقومي ، ولم يترك لحظة من حياته إلا وصور نفسيته فيها بسطور مصقولة ترمي بشرر كالقصر، حتى في آخر لحظة من حياته وهو يتغلغل على سرير الموت بالوجع والفجع ، وكتب عام ١٩٦٤ آخر قصيدة - على ما يبدو - بعنوان " عكاز في الجحيم" يمتزج بالأمل واليأس والرغبة إلى لقاء الموت، يقول فيه: وبقيت أدور / حول الطاحونة من ألمي / ثورا معصوباً، كالصخرة ، هيهات تثور / والناس تسير إلى القمم / لكنني أعجز عن سير - ويلاه - على قدمي / وسريري سجنى ، تابوتي ، منفاي

١ محمد الجبيري: مجلة نزوى الفصلية الثقافية، العدد: ٦٧ / أغسطس ٢٠١١

٢ إحسان عباس: بدر شاكر السياب - دراسة في حياته وشعره ص ٢٥

٣ ريتا عوض: بدر شاكر السياب ص ١٥

إلى الألم / وإلى العدم .. وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور / أو بعد سنين من السقم / أو بعد دهور / فأسير .. أسير على قدمي / عكاز في يدي اليمنى / عكاز؟ .. بل عكازان / تحت الابطين يعينان ... (١).

تأثر السياب لغة بما قرأه في الآداب القديمة كالمتنبي وأبي تمام والشريف الرضي فجاءت لغته قوية التراكيب ومتحدة المعاني ، وتأثر في شعره من حيث الفكر والأسلوب بالأدب الانكليزي والألماني كشارل بودلير و كيتس و إديث سيطويل فقاده هذا الى ابتكار أسلوب جديد في الشعر العربي ، المعروف بالشعر الحر لتحرره من قيود العروض والقوافي، ومال أولاً إلى الرومانتيكية ثم إلى الواقعية مستخدماً الرموز والأساطير في أشعاره لبيان أحاسيسه الداخلية ومشاكله الخارجية فصار بذلك أبا الحداثة ورائداً للشعر العربي الحديث.

المصادر والمراجع:

- ١ . ريتا عوض : بدر شاكر السياب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٨٣
- ٢ . د/ ديزيره سقال: بدر شاكر السياب- شاعر الحداثة والتغيير، دار الفكر العربي بيروت، بلا سنة
- ٣ . باسل الزين: بدر شاكر السياب - أبو الحداثة ، دار الفكر اللبناني بيروت، الطبعة الخامسة- ٢٠٠٨
- ٤ . إحسان عباس: بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، دار الثقافة، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٧٨
- ٥ . المجموعة الشعرية الكاملة لبدر شاكر السياب - ناجي علوش ، دار ميه سوريا - دمشق ٢٠٠٦
- ٦ . مجلة نزوى الفصلية الثقافية، العدد : ٦٧ / أغسطس ٢٠١١ مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان.
- ٧ . جريدة القدس ، مؤسسة القدس العربي للنشر والإعلان ، لندن_ السنة ٢٢ العدد ٦٧٠٢ / ٢٠١٠

نداء الهند